

أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي

د. حسين علي محمد

كلية العلوم الإسلامية / جامعة بابل

The effect of Makki and Madani on grammatical guidance

Dr. Hussein Ali Muhammad

College of Islamic Sciences / University of Babylon

Email: hussainali82@iunajaf.edu.iq

ملخص البحث

مهمة البحث تسليط الضوء عن أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي ، استنادا إلى أنّ المكي والمدني واحد من العناصر الخارجية المؤثرة في دلالة النص القرآني.

قسم المفسرون سور القرآن الكريم على قسمين، أطلق على الأول منهما اسم (المكي)، وعلى الثاني اسم (المدني)، وعلى الرغم من الاختلاف في تحديد المراد من المفهومين، بيد أنّ المشهور أنّ المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، ما يعني أنّ الدلالة الزمنية هي المرادة من هذا التقسيم وليس شيئا آخر.

شغل المكي والمدني حيزا كبيرا في كتب التفسير، فكثيرا ما نجد المفسرين يستعينون بمكان النزول وزمانه لاستجلاء المعنى الكامن خلف النص، وربما كان لذلك أثر في توجيه النص نحويا، فقد يضاف باستدعاء المكي والمدني، وما يرافقه من معنى توجيه على التوجيهات النحوية المحتملة، وربما ساعد على ترجيح رأي وتضعيف آخر، كل ذلك سيتكفل البحث ببيانه، والكشف عنه.

الكلمات المفتاحية: المكي، المدني، التوجيه النحوي، العناصر الخارجية.

Abstract

The task of the research is to shed light on the impact of Makki and Madani in grammatical guidance; Based on the fact that Makki and Madani are one of the external factors affecting the significance of the Qur'anic text.

The commentators divided the Noble Qur'an into two parts the first of which was called (Al-Makki) and the second was called (Al-Madani) and despite the difference in defining the meaning of the two concepts it is well known that the Meccan was not revealed before the migration and the Madani was revealed after it which means The temporal significance is what is meant by this division and nothing else.

Makki and Madani occupied a large space in the books of interpretation as we often find them using the place and time of the descent to clarify the meaning behind the text and this may have had an impact in directing the text grammatically it may be added by calling the Makki and Madani and the accompanying meaning of guidance on possible grammatical directives and may have helped to Weighting an opinion and weakening another. All of this will ensure his statement and detection.

Keywords: Meccan Madani grammatical guidance external elements.

المقدمة:

لا يعتمد المُعرب في توجيه النص نحويا على السياق اللغوي فحسب، بل يتعداه إلى العنصر الخارجي لما له من بالغ الأثر في ذلك؛ لذلك اجتهد العربون في توظيف السياق الحالي، في توجيهاتهم النحوية.

وكنت قد كتبت بحثاً عن أثر السياق الحالي في الاحتمال النحوي في القرآن الكريم، وفكرة البحث تلك تنصبُّ على استدعاء السياق الحالي، وما لذلك من أثر في تعدد الأوجه النحوية المحتملة، كان الجزء الأخير منه مخصصاً بالمكي والمدني، كواحد من السياقات الحالية التي تؤثر في الاحتمال النحوي، فوجدته يستحق الدراسة في بحث مستقل.

سأتناول في دراستي هذه أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي؛ ذلك أنَّ المكي والمدني يمثل واحداً من العناصر الخارجية التي استعان بها المفسرون لبيان كثير من معاني الآيات القرآنية، وهو -تبعاً لذلك- قد يؤثر في توجيه بعض النصوص نحويا.

وبعد بحث في كتب من التفسير وجدت مجموعة من المسائل متفرقة في ثناياها قد أثر فيها المكي والمدني على التوجيه النحوي، ثم نظرت في الموضوع بمسائله فاستقر تقسيم البحث على النحو الآتي:

- المقدمة

- التعريف بالمكي والمدني

- توطئة

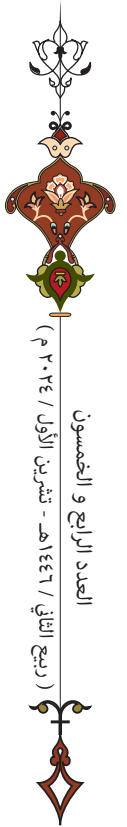
- مسائل في أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي، وفيه:

١ - أثر المكي والمدني في التعريف والتنكير.

٢ - أثره في عود الضمير.

٣ - أثره في بيان سبب ذكر الضمير للمخاطب مرة، وللغائب أخرى في آيتين متناظرتين.

٤ - أثره في تعيين المشار إليه بالاسم الموصول.



٥- أثره في بيان ناصب المفعول المطلق.

٦- أثره في تحديد الدلالة الزمنية لاسم الفاعل.

٧- أثره في تحديد التاء مع الفعل المضارع، للخطاب هي أم للتأنيث؟

٨- أثره في تحديد دلالة أداة الاستفهام (هل).

-الخاتمة

-مصادر البحث

التعريف بالمكي والمدني:

اختلف العلماء في تحديد المكي والمدني، ولهم في ذلك ثلاثة أقوال^(١):

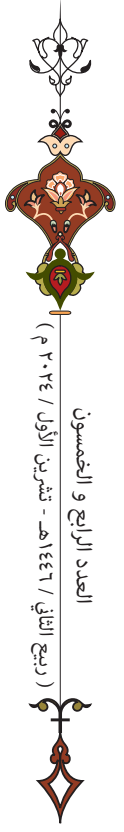
الأول: أَنَّ الْمَكِّيَّ مَا نَزَلَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ مَكَّةَ، وَالْمَدَنِيَّ مَا نَزَلَ بَعْدَهَا، وَإِنْ كَانَ بِمَكَّةَ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ قَدْ أَخَذَ بِنَظَرِ الْإِعْتِبَارِ التَّرْتِيبَ الزَّمَنِي لِنَزُولِ سُورِ الْقُرْآنِ وَآيَاتِهِ، مَقْسَمَةٌ عَلَى قِسْمَيْنِ، الْأَوَّلُ الْمَكِّي: وَهُوَ مَا نَزَلَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ، وَالثَّانِي الْمَدَنِي: وَهُوَ مَا نَزَلَ بَعْدَهَا فِي الْمَدِينَةِ أَوْ فِي مَكَّةَ أَوْ فِي غَيْرِهَا.

الثاني: أَنَّ الْمَكِّيَّ مَا نَزَلَ فِي مَكَّةَ، وَالْمَدَنِيَّ مَا نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ يَأْخُذُ مَكَانَ نَزُولِ سُورِ الْقُرْآنِ وَآيَاتِهِ بِنَظَرِ الْإِعْتِبَارِ مِنْ دُونِ النَّظَرِ إِلَى التَّرْتِيبِ الزَّمَنِي، فَالْمَكِّي مَا نَزَلَ فِي مَكَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ أَوْ بَعْدَهَا، وَالْمَدَنِي مَا نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ وَإِنْ كَانَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ.

الثالث: أَنَّ الْمَكِّيَّ مَا جَاءَ خِطَابًا لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَالْمَدَنِيَّ مَا كَانَ خِطَابًا لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَهَذَا يَأْخُذُ بِنَظَرِ الْإِعْتِبَارِ الْأَشْخَاصَ الْمُخَاطَبِينَ، فَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ لِأَهْلِ مَكَّةَ فَإِنَّهُ مَكِّي، بِصَرَفِ النَّظَرِ عَنْ زَمَانِ نَزُولِهِ أَوْ مَكَانِهِ، وَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ مُوجَّهًا لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ فَإِنَّهُ مَدَنِي بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ الْمَكَانِ أَوْ الزَّمَانِ.

والأول هو المشهور، أي: إِنَّ الْمَكِّيَ وَالْمَدَنِيَّ - وَإِنْ كَانَ النِّسْبَةُ فِيهِمَا إِلَى الْمَكَانِ - يَدُلُّ عَلَى زَمَانِ نَزُولِ سُورِ الْقُرْآنِ وَآيَاتِهِ، وَتَحْدِيدًا مَا نَزَلَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ، وَمَا نَزَلَ بَعْدَهَا، فَمَا نَزَلَ

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ١/ ١٨٧، والإتقان، ١/ ٣٧، ومباحث في علوم القرآن، ١٧٠.



أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي التوجيه النحوي

قبل المحجرة فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني، وإن كان نزوله بمكة، أو في غير المدينة، واستنادا إلى ذلك وجهوا معاني بعض نصوص القرآن الكريم.

ثم اختلف المفسرون في القرآن، أيُّ سورة وآياته مكي وأيها مدني؟ أشار الباقلاني إلى هذا الاختلاف وذكر سببه، فهو يرى أن الرسول ﷺ لم يجعل العلم بالمكي والمدني من فرائض الأمة وواجبهم؛ (وإذا كان ذلك كذلك ساع أن يختلفوا في بعض القرآن هل هو مكِّي أو مدني، وأن يُعملوا في القول بذلك ضرباً من الرأي والاجتهاد)^(١)، وذهب بعضهم إلى أن (معرفة المدني من المكي أمر عسير لم تبلغ إليه معرفة العلماء على التحقيق، ولا ثبت فيه النقل على الصحيح)^(٢)، وقد استعان المفسرون بمجموعة من القرائن لمعرفة المكي والمدني، بسطوا لها في كتبهم^(٣).

والسؤال الذي يبرزها هنا هو، هل ثمة أثر للمكي والمدني في التوجيه النحوي؟ هذا ما ستكفل الصفحات الآتية بالكشف عنه.

توطئة:

شغل البحث عن معنى النص القرآني العلماء قديماً وحديثاً، وأخذ البحث فيه أشكالا متعددة لم تستغن جميعها عن الاستعانة بالعنصر الخارجي؛ ذلك أن دلالة النص اللغوي تتشكل من شقين لا يمكن الاستغناء عن أحدهما بالآخر، الشق الأول يمثل العنصر اللغوي، ويتمثل في اللغة المنطوقة بأصواتها اللغوية المعروفة التي تؤدي الدور الأبرز في التواصل الاجتماعي، ويتبادر إلى الذهن عند ذكر اللغة وظيفتها، ف- اللغة (أصوات

(١) الانتصار للقرآن، ١/ ٢٤٨.

(٢) الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، ٢/ ٩.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ١/ ١٨٩، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ١/ ١٠٦-١٠٧، والإتقان في علوم القرآن، ١/ ٦٩. ذكر السيوطي أن (مَعْرِفَةَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ طَرِيقَانِ: سَمَاعِيٌّ وَقِيَاسِيٌّ فَالْسَمَاعِيُّ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا نَزْلُهُ بِأَحَدِهِمَا وَالْقِيَاسِيُّ كُلُّ سُورَةٍ فِيهَا: ﴿بَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فَقَطْ، أَوْ أَوَّلُهَا حَرْفُ تَهَجٍّ سِوَى الزَّهْرَاوَيْنِ وَالرَّعْدِ أَوْ فِيهَا قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ سِوَى الْبَقَرَةِ فَهِيَ مَكِّيَّةٌ. وَكُلُّ سُورَةٍ فِيهَا فَصُّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ الْحَالِيَةِ مَكِّيَّةٌ وَكُلُّ سُورَةٍ فِيهَا فَرِيزَةٌ أَوْ حَدٌّ فَهِيَ مَدَنِيَّةٌ).

يعبر بها كل قوم عن أغراضهم^(١)، أو يتمثل باللغة المكتوبة برموزها المعهودة ، فالعنصر اللغوي يتمثل بمستوياته القارة عند اللغويين، وهي: المستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، والمستوى النحوي، فضلا عن الدلالة المعجمية، وهذه لا تعطينا (إلا معنى المقال، أو المعنى الحرفي كما يسميه النقاد، أو معنى ظاهر النص كما يسميه الأصوليون ، وهو... معنى فارغ تماما من محتواه الاجتماعي والتاريخي، منعزل تماما عن كل ما يحيط بالنص من القرائن الحالية^(٢) .

لذا يحتاج الشق الأول الذي يمثله العنصر اللغوي إلى المقام، أو السياق الحالي، وهذا يمثل الشق الثاني من شقي الدلالة، وعناصر السياق الحالي في اللغة المنطوقة تُغني المتكلم عن التعبير لفظيا عما يحيط به من ظروف تكتنف الخطاب، فهي كفيلة بالتعبير عن نفسها، لتشكل مع المنطوق خطابا يمثل حالة معبرة تفصح عن المراد؛ فالتكلم ليس مضطرا للتعبير لسانيا عن العناصر التي يتضمنها الخطاب، هذا في اللغة المنطوقة، أما في اللغة المكتوبة فقد يضطر الكاتب إلى بيان المقام كتابة؛ ليصور المعنى بدقة، ولا يترك القارئ مضطربا بين هذا المعنى وذاك^(٣) .

ولما كان النصّ القرآني نصّا مكتوبا اجتهد المفسرون في استدعاء العنصر الخارجي؛ وذلك عن طريق النظر في أسباب النزول، وفي المكي والمدني، وفي الحديث النبوي الشريف، وفي غير ذلك مما له أثر في إبراز المعنى الذي يريده النصّ القرآني.

والذي لا شكّ فيه أنّ للمكي والمدني أثرا في بيان دلالة النصّ القرآني، دفع ذلك المفسرين إلى الاستعانة به كواحد من أهم القرائن غير اللغوية التي تساعد في كشف دلالة النصّ القرآني؛ يمكن أن نلاحظ الدور الذي يؤديه المكي والمدني في كشف المعنى الكامن

(١) الخصائص ، ١ / ٣٤ .

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ، ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٣) يمكن تبين ذلك في الروايات والرسائل المكتوبة ونحوها، فالكاتب يجد نفسه مضطرا إلى بيان أمور ليس بالكلام المنطوق حاجة إليه، كأن يذكر في السلسلة المكتوبة حالات معينة كأن يكون الخطاب المفترض يدور في المساء والظلام حالك، أو المطر منهمر، أو ثمة مجموعة من الناس مزدحمون في المكان، وكان الحوار هادئا ثم احتدم، ونحو ذلك مما لا حاجة لذكره في لغة الخطاب.

أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي المصباح

خلف النصّ إذا عرفنا أنّ للمكي مجالا يختلف عن مجال المدني، فالمكي يمثل حالة الخطاب الممتدة من بداية الدعوة إلى الهجرة، وكل ما في ذلك من ظروف وملابسات، ووفقا لتلك الحالة فثمة فهم للنصّ المكي يتناسب مع تلك الظروف، يتضح ذلك إذا عرفنا أنّ المكي يوجه خطابه إلى المشركين والكافرين، ومجادلتهم وتسفيه أحلامهم، يرافق ذلك كثرة القسم فيه جريا على عادة العرب في كلامها، وسوق الأدلة والبراهين على صحة الرسالة، وفيه ذكر للقرون الماضية والعذاب، وغير ذلك مما يمثل صدى للحالة الاجتماعية المرافقة للدعوة السابقة للهجرة.

أمّا المدني فيمثل حالة الخطاب الممتدة من الهجرة إلى انقطاع الوحي، وهذه تختلف تماما عن سابقتها، فالظروف والملابسات ليست كذلك التي كانت قبل الهجرة، فثمّ مهاجرون وأنصار، ووجود لأهل الكتاب، وكانت في هذه المرحلة مجموعة من المعارك والغزوات، لذا نجد الخطاب فيه موجها إلى المنافقين وأهل الكتاب، وفيه إذن بقتال المشركين، وفيه ذكر للحد والفرائض^(١)، وغير ذلك مما يناسب تلك المرحلة، فليس واردا بمكان أن يكون الخطاب في المدينة ماثلا له في مكة؛ لأنّ البيئة في المدينة تستدعي خطابا مختلفا تماما يراعى فيه حال المخاطبين في كل سور القرآن وآياته.

ثم يعرف بمعرفة المكي والمدني الناسخ من المنسوخ^(٢)؛ ذلك أنّ الناسخ لا يكون إلاّ متأخرا؛ لأنّ اللاحق ينسخ السابق وليس العكس.

لقد ذكر الدكتور صبحي الصالح في كتابه (مباحث في علوم القرآن) حاجة المفسر إلى العلم بالمكي والمدني؛ فهو يرى أنّ ذلك (يعد بحق منطلق العلماء لاستيفاء البحث في مراحل الدعوة الإسلامية، والتعرف على خطواتها الحكيمة المتدرجة مع الأحداث والظروف والتطلع إلى مدى تجاوبها مع البيئة العربية في مكة والمدينة، وفي البادية والحاضرة، والوقوف على أساليبها المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين وأهل الكتاب)^(٣).

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ١ / ١٨٧ - ١٨٩.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ١ / ١٧٨، والإتقان، ١ / ٣٦.

(٣) مباحث في علوم القرآن، ١٧٠.

ووفقا لذلك أثر التقسيم الزمني لسور القرآن وآياته على معرفة كثير من المعاني، وأثر كذلك في توجيه بعض النصوص نحويا، يكون ذلك التأثير في ما للزمن أثر فيه، على النحو الذي سيتضح في المسائل التي سأتناولها بالدراسة.

أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي:

تنوعت المسائل التي كان للمكي والمدني أثر في توجيهها نحويا، وآثرت دراسة كل مسألة منها مذكورة في الباب النحوي الذي تنتمي إليه، وعلى النحو الآتي:

- أثر المكي والمدني في التعريف والتنكير:

استدل المفسرون على ورود الاسم نكرة في موضع، ومعرفة في موضع آخر في آيتين متناظرتين بمكان النزول وزمانه؛ مستنديين إلى القاعدة النحوية التي تقول: إذا ذكر الاسم نكرة في موضع أعيد ذكره معرفة في الموضع الآخر^(١).

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤].

وردت لفظة (النار) في الآية الكريمة معرفة بـ(أل)، وموصوفة بالاسم الموصول (التي)، على حين أنها ذكرت في سورة التحريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [سورة التحريم: ٦]، نكرة، ومن دون أن توصف.

ذهب بعض المفسرين إلى أن (أل) في (النار) للعهد الذكري، ذلك أن النار ذكرت أولا نكرة في سورة التحريم، فعندما ذكرت بعد ذلك في سورة البقرة جيء بها معرفة؛ ودليلهم أن سورة التحريم مكية، وسورة البقرة مدنية.

قال أبو حيان: (وَعَرَفَ النَّارَ هُنَا لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا نَكْرَةً فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ، وَالَّتِي فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، وَهَذِهِ بِالْمَدِينَةِ. وَإِذَا كُرِّرَتْ النُّكْرَةُ سَابِقَةً ذُكِرَتْ ثَانِيَةً بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ، وَصَارَتْ مَعْرِفَةً لِتَقْدُمِهَا فِي الذِّكْرِ وَوُصِفَتْ بِالَّتِي وَصَلَتْهَا، وَالصَّلَةُ مَعْلُومَةٌ لِلْسَّامِعِ

(١) ينظر: ارتشاف الضرب، ٢/ ٩٨٥، ومغني اللبيب، ٧٢.

أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي البصائر

لَتَقْدُمَ ذِكْرُ قَوْلِهِ: نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، أَوْ لِسَمَاعٍ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَ نُزُولِ الْآيَةِ (١).

فالمفسر يستعين بالسياق الحالي المتمثل بزمان نزول الآية القرآنية ومكانه في توجيه النص نحويًا، فعلى الرغم من أن (نارا) النكرة مذكورة في سورة مكية، سابقة في نزولها لآية (النار) المعرفة، بيد أن ذلك لم يكن مانعا من الاستدلال به على تعريف (النار) بمعرّفين، بالألف واللام الدالة على العهد الذكري، لما ذكرنا من أن النار ذكرت في موضع سابق نكرة، ثم تعريفها بالصلة التي تُشعر بأنه قد شاع هذا النعت للنار بين المسلمين؛ لأنه مذكور في سياق الآية السابقة من حيث نزولها.

والخلاصة أن النار وصفتها في الموضعين متحد، أعني في السورة المكية، والسورة المدنية، واختلف لفظها؛ لأن آية التحريم مكية عرف الكفار منها نارا موصوفة بأن وقودها الناس والحجارة، فلما نزلت في سورة البقرة عُرِّفت إشارة إلى معرفتها أولا (٢).

ومن ذلك ما ذكره أبو حيان في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٥]، من أن ترتيب المحرمات في هذه الآية من سورة الأنعام جاء كترتيبها في سورتي البقرة والمائدة، ولكن جاء بها في هذه الآية منكّرة، وهي في السورتين معرفة؛ لأن نزولها الأول في سورة الأنعام كان في مكة، وكان نزولها في البقرة والمائدة في المدينة.

يقول: (وَجَاءَ التَّرْتِيبُ هُنَا كَالْتَّرْتِيبِ الَّذِي فِي الْبَقَرَةِ وَالْمَائِدَةِ وَجَاءَ هُنَا هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتُ مُنْكَرَةً وَالدَّمُ مَوْصُوفٌ بِقَوْلِهِ: مَسْفُوحًا وَالفِسْقُ مَوْصُوفًا بِقَوْلِهِ: أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَفِي تَبْيَإِ السُّورَتَيْنِ مُعَرَّفًا لِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ فَعُلِقَ بِالتَّنْكِيرِ، وَتَانِكَ السُّورَتَانِ مَدَيِّنَتَانِ فَجَاءَتْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ مَعَارِفَ بِالْعَهْدِ حُوَالَةً عَلَى مَا سَبَقَ تَنْزِيلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ) (٣).

(١) البحر المحيط، ١/ ١٧٥، وينظر: البرهان في علوم القرآن، ٢/ ٦٤.

(٢) ينظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البضاوي، ٢/ ٥٤.

(٣) البحر المحيط، ٤/ ٦٧٣.

والآية التي وردت فيها هذه الأسماء في سورة البقرة هي: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٧٣]، وفي سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [سورة المائدة: ٣].

فالمحرمات ذُكرت في سورة الأنعام المكية نكرات؛ لأنَّ نزولها الأول فيها، فعندما ذكرت في السورتين المدنيتين بعد ذلك جاءت معرفة؛ لأنَّ الاسم إذا ذُكر في موضع، يكون معهوداً عهداً ذكرياً في حال ذكره مرة ثانية في موضع آخر، فيؤتى به معرفة^(١)، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ﴾ [سورة المزمل: ١٥ - ١٦]، إلا أنَّ الاسم في هذا الموضع ذُكر نكرة فمعرفة في السورة نفسها، أما في ما نحن بصده فإِنَّهَا ذكرت نكرات في سورة، ثم عُرِّفت عند ذكرها بعد ذلك في سورتين أخريين.

واضطربت أقوال المفسرين في قوله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [سورة البقرة: ١٢٦]، بتنكير (البلد)، ووصفه، وفي سورة إبراهيم المكية: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبِي وَبَنِيَّ أَمْنِ الْعِبَادِ الْأَصْنَامَ) [سورة إبراهيم: ٣٥]، بتعريف البلد بـ(أل)؛ من دون وصف، وسبب الاضطراب أنَّ القاعدة تقضي بأنَّ الاسم إذا تقدم نكرة، ثم أعيد فإنه يعاد معرفاً، على النحو الذي فصلنا القول فيه في المسألتين السابقتين، إلا أنَّ الحالة في (البلد) معكوسة، فإنه ذُكر في الآية المكية معرفاً بـ(أل)، وفي المدنية نكرة.

(١) ينظر: ارتشاف الضرب، ٢ / ٩٨٥، ومغني البيب، ٧٢.

ذكر صاحب أسرار التكرار في القرآن ثلاثة أقوال في توجيه ذلك^(١):

الأول: أن في سورة البقرة التي ذكر الاسم فيها نكرة إشارة إلى المذكور في قوله: ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، قبل بناء الكعبة، والمعنى: صيره بلدا آمنا، فالمفعول الثاني (بلدا)، و(آمنا) نعت له، فالبلد وفقا لهذا المعنى لم يكن موجودا أصلا، والدعاء بجعله بلدا. وفي سورة إبراهيم إشارة إلى البلد بعد بناء الكعبة، ووفقا لذلك أن ثمة بلدا، والدعاء بان يجعله الله آمنا، فيكون البلد مفعول به أول، و(آمنا) مفعول به ثان.

الثاني: أن النكرة إذا تكررت صارت معرفة، وقوله هذا يشي بأنه يذهب إلى أن نزول الآية في سورة إبراهيم سابقة لنزولها في سورة البقرة، أو أنها في حكم السابقة لها؛ لأن دعاء إبراهيم في الآية التي وردت فيها النكرة متقدمة على دعائه في الآية التي وردة فيها (النار) معرفة.

الثالث: أن التقدير في البقرة: اجعل هذا البلد بلدا آمنا، فحذف (البلد) اكتفاء بالإشارة إليه.

وذكر الرازي الأول منهما، والثالث من دون ترجيح^(٢)، وإلى المعنى الأول ذهب الزركشي، ثم قال: (وَكُونُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَدَنِيَّةً وَسُورَةُ إِبْرَاهِيمَ مَكِّيَّةً لَا يُنَافِي هَذَا لِأَنَّ الْوَاقِعَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ كَوْنُهُ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمَذْكُورِ وَالْإِخْبَارُ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ التَّرْتِيبِ، أَوْ لِأَنَّ الْمَكِّيَّ مِنْهُ مَا نَزَلَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ فَيَكُونُ الْمَدَنِيُّ مُتَأَخِّرًا عَنْهَا وَمِنْهُ مَا نَزَلَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فَيَكُونُ مُتَأَخِّرًا عَنِ الْمَدَنِيِّ فَلَمْ قُلْتُمْ إِنَّ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْمَكِّيِّ الَّذِي نَزَلَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ فَضُلٌّ فِي الْإِجَابَةِ عَنْ بَعْضِ الاسْتِشْكَالَاتِ)^(٣).

فهو يفرق بين ترتيب الآيات على وفق نزولها الزمني، وبين الترتيب الذي كان عليه دعاء إبراهيم؛ فآية (رب اجعل هذا بلدا آمنا)، وإن كانت متأخرة في نزولها إلا أنها متقدمة

(١) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ٧٨، وينظر: بصائر ذوي التمييز، ١ / ١٤٧ - ١٤٨، ومعتزك الأقران، ١ / ٦٩.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، ٤ / ٤٩.

(٣) البرهان في علوم القرآن، ٢ / ٦٤ - ٦٥.

في حقيقتها؛ فنبى الله إبراهيم دعا بها أولا، ثم جاء دعاؤه بـ (ربّ اجعل هذا البلد آمنا)؛ لذلك جاء الاسم نكرة في الآية الأولى، ثم معرفة في الثانية، استنادا إلى حقيقة دعاء إبراهيم ربّه، هذا تخريج من تخريجين.

أما في الثاني منها فإنه يأخذ بالتقسيم المكاني للمكي والمدني، ويذهب إلى أنّ المكي ما نزل في مكة، وإن كان بعد الهجرة، والمدني ما نزل في المدينة، وأنّ آية (ربّ اجعل هذا البلد آمنا) مكية، إلا أنها يمكن أن تكون نزلت في مكة بعد الفتح، فتكون حينئذ متأخرة زمنيا لآية (ربّ اجعل هذا بلدا آمنا)، وبه ينتهي الإشكال.

فالزركشي لم يخرج عن أنّ الاسم المتقدم إذا ذكر نكرة في موضع، أعيد ذكره معرفة في الموضع الآخر، وأنّ الآية التي ورد فيها الاسم نكرة هي المتقدمة زمنيا، على وفق التخريجين السابق ذكرهما.

وفي تفسير مبهمات القرآن: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، قال: (البلد) بالألف واللام وهو يعني مكة؛ لأن معنى الكلام أنّه دعاء لهذا (البيت) الذي أنت فيه يا محمد، والآية مكيّة كما أنّ قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ الآية مكيّة أيضا، فجاء بلفظ الحاضر، وقال في البقرة وهي مدنيّة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾؛ لأن معنى الكلام في الآية المدنيّة أنّه دعاء لها أن يجعلها بلدا آمنا، ومعنى الكلام في الآية المكيّة أي دعا لهذا البلد فجاء اللفظ مشاكلا للمعنى في الآيتين جميعا^(١).

فمكان النزول حاضر في توجيه النصين، ذلك أنّ سورة إبراهيم مكية فجاء بـ (أل)؛ إشارة إلى وجود رسول الله ﷺ في مكة، فمكة حاضرة أثناء نزول الآية، لذلك قال: (البلد)، بلام التعريف التي للحضور، فمعنى الكلام أنّه دعاء لهذا البيت الذي أنت فيه يا محمد، أمّا في سورة البقرة المدنية فثمّ دعاء لها كذلك، ولكن رسول الله ﷺ لم يكن فيها أثناء نزول الآية، إنما كان في المدينة، فلم تكن مكة حاضرة حين نزولها، لذلك لم يعرفها بلام الحضور، إنما جاء بالاسم الذي يشير لها خلوا من (أل)، فهو دعاء لها أن يجعلها بلدا آمنا، وقد عبّر عن

(١): تفسير مبهمات القرآن، ٢/ ٧٩.

ذلك بالمشاكلة، أي: موافقة اللفظ للمعنى.

واعترض ابن جزي على هذا التوجيه، واعتراضه مستند إلى أن ذلك الكلام حكاية عن إبراهيم عليه السلام، وهذا يعني أنه لا يوجد فرق بين كون الآية مكية، أو مدنية^(١)، وهو اعتراض مردود لأن الحق تعالى لم يحك لنا قصص الأنبياء بألفاظهم، وإنما ترجم عنها بلسان عربي، فينزل على رعاية مقتضى الحال؛ ولذلك اختلفت الألفاظ في قصص الأنبياء؛ لأن كل قصة تنزل على ما يقتضيه المقام والحال، من تعريف وتنكير، واختصار وإطناب^(٢).

وزاد أبو حيان قولاً آخر على ما ذكره الآخرون^(٣)، وهو أنه ليس ثمة بلد في الآيتين، إنما هو دعاء له بأن يكون بلداً في المستقبل، وجاء به معرفة في سورة إبراهيم باعتبار ما سيؤول إليه^(٤)، ولم يذكر أثر المكان النزول وزمانه في توجيهه.

ومما ذكر يمكن أن نلاحظ أمرين:

الأول: استعان بعض المفسرين بالمكي والمدني كقرينة تمثل السياق الحالي في التوجيه النحوي للنصوص التي ذكر فيها الاسم الواحد في موضعين متشابهين، مرة نكرة وأخرى معرفة، مستندين في ذلك إلى القاعدة النحوية التي تقول: إذا ذكر الاسم في موضع نكرة أعيد معرفة في حال ذكره مرة ثانية، وتعريفه يكون بـ(أل) الدالة على العهد الذكري.

الآخر: اضطربت أقوال النحويين في المسألة التي خالفت القاعدة النحوية، حيث ورد الاسم في المكية معرفة، وفي المدنية نكرة، فأخذت أقوالهم أشكالا شتى لم يكن مكان النزول وزمانه بمنأى عن توجيهاتهم.

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ١/ ٩٨.

(٢) البحر المديد، ٣/ ٦٤.

(٣) أما القولان الآخران فهما: الأول: أنه جاء بالنكرة في سورة البقرة؛ لأنه لم يكن بلداً، فثمة دعاء ليصير بلداً، فلما صار بلداً قال بالتعريف: ربّ اجعل هذا البلد آمناً، والثاني: أن آية التنكير تحتل أن يكون قبل الاسم النكرة معرفة محذوف، أي: اجعل هذا البلد بلداً آمناً، فتكون الإشارة إليه في الموضعين بعد أن صار بلداً، وهذان القولان سبق ذكرهما، ينظر: البحر المحيط، ١/ ٦١٢.

(٤) ينظر: البحر المحيط، ١/ ٦١٢.

- أثره في عود الضمير:

الأصل أن يؤتى بالضمير بعد ذكر الاسم ظاهراً اختصاراً، وقد يعود على غير مذكور، إذا كان في الكلام ما يُرشد إليه^(١)، وربما تتعدد الأسماء المذكورة قبل الضمير، ويكون كل واحد منها صالحاً لتفسيره، وقد تحدث النحويون عن هذه الحالة، وبسطوا القول فيها، وملخص حديثهم أنه يتعين عود الضمير على أقرب مذكور، ولا يكون لغيره إلا بدليل^(٢)؛ وقد يكون الدليل من خارج النص اللغوي.

ثمة مسائل في القرآن الكريم اختلف فيها في الضمير على أي يعود، وكان للمكي والمدني أثر في تحديد ذلك.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٥].

اختلف المفسرون في عود الضمير المرفوع في (يسألونك)، ومنشأ اختلافهم هذا مبني على اختلافهم في مكان نزول الآية. يذكر المفسرون رواية في سبب نزول الآية، تروى مرة في مكة، وأخرى في المدينة، وعلى روايتها في مكة؛ فالضمير يعود على قريش، وعلى روايتها في المدينة فالضمير يعود على اليهود.

وملخص الرواية عن عبد الله بن مسعود أنه قال: بينا كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، في حرة بالمدينة، إذ مررنا على يهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فسألوه، فوقف رسول الله ﷺ على عسيب^(٣)، ثم تلا الآية^(٤)، والضمير على هذه الرواية يعود على اليهود الذين سألوا رسول الله ﷺ عن الروح.

(١) ينظر: أمالي ابن الحاجب، ١ / ١١٨.

(٢) ينظر: شرح التسهيل، ١ / ١٥٧، يقول: (إذا ذكر ضمير واحد بعد اثنين فصاعداً جعل للأقرب ولا يجعل لغيره إلا بدليل من خارج)

(٣) العسيب: سعف النخل، يكون فوق الكرب، ولم يُنبِت عليه الخوص، ينظر: الصحاح (عسب)، ١ / ١٨١.

(٤) ينظر: جامع البيان، ١٧ / ٥١٤، وبحر العلوم، ٢ / ٣٢٧، والكشف والبيان، ١٦ / ٤٦٥.

أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي البصائر

وقيل إنّ من سأله عن الروح هم قريش، وذلك أنّهم سألوها أهل الكتاب من اليهود في محمد ﷺ، فقال لهم اليهود: أسألوه عن ثلاث مسائل: سلوه عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن فسر الثلاثة فإنه متقول، وإن أخبركم عن أهل الكهف، وذي القرنين، وسكت عن الروح فهو مرسل^(١)، والضمير وفقاً لهذه الرواية يعود لقريش.

فالاختلاف في عود الضمير سببه مكان نزول الآية وزمانه، وليس سبب نزولها، قال ابن عطية: الضمير في يسألونك قيل هو لليهود وإن الآية مدنية... وقيل الآية مكية والضمير لقريش^(٢).

فإذا كان نزول الآية في مكة قبل الهجرة فيتعين أن يعود الضمير على قريش، فالذين سألوها رسول الله ﷺ عن الروح هم قريش؛ لأنه كان بينهم قبل الهجرة وجداله لهم في مكة، وإن كان نزول الآية في المدينة بعد الهجرة، فالضمير عائد على اليهود؛ فالذين سألوها عن الروح هم اليهود؛ لأنهم كانوا في المدينة، وخطابهم كان بعد الهجرة فيها.

ومنه في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

اختلف المفسرون في الضمير المرفوع في الآية على من يعود؟ فقيل: إنه يعود على اليهود، استناداً إلى مكان نزول الآية؛ ذلك أنّها نزلت في المدينة، وأنّ الذين كادوا يستفزون رسول الله ﷺ هم اليهود، وأنّ الأرض التي هموا بإخراجها منها هي المدينة، حكاه الفراء^(٣)، والطبري^(٤)، في قول من قولين، ولم يذكر الماتريدي غيره^(٥)، والرواية أنّه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة حسدته اليهود وثقل عليهم مكانه، فقالوا: إنك لتعلم أن هذه البلاد ليست ببلاد الأنبياء، إنّما بلادهم الشام، فإن كنت نبياً فاخرج إلّيه، فإن الله سينصرك، قال: فعسكر

(١) ينظر: التيسير في التفسير، ٩/ ٤٧١، والمحرر الوجيز، ٣/ ٤٨١، والتفسير الكبير، ٢١/ ٣٩١، والبحر المحيط، ٧/ ١٠٦.

(٢) المحرر الوجيز، ٣/ ٤٨١، والجواهر الحسان، ٣/ ٤٩٤، التحرير والتنوير، ١٦/ ١٧.

(٣) ينظر: معاني القرآن، الفراء، ٢/ ١٢٨.

(٤) ينظر: جامع البيان، ١٧/ ٥١٠.

(٥) ينظر: تأويلات أهل السنة، ٧/ ٩٧.

النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمِّيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ) ^(١).

واستنادا إلى مكان نزول الآية فَإِنَّ الضمير المرفوع يعود على اليهود، وإن لم يجر لهم ذكر في سياق السورة، فالمعول عليه في تحديد عود الضمير مكان نزولها، وأن الرواية المذكور كانت في المدينة.

وقال الطبري في ثاني القولين إِنَّ الذين فعلوا ذلك قريش، والأرض التي أرادوا إخراجها منها مكة، فالضمير تبعاً لهذا يعود على قريش. وهو الراجح عنده؛ ذلك أن قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ في سياق خبر الله عز وجل عن قريش وذكره إياهم، ولم يجر لليهود قبل ذلك ذكر، فيوجه قوله: (وَإِنْ كَادُوا) إلى أنه خبر عنهم، فهو بأن يكون خبراً عما جرى له ذكر أولى من غيره ^(٢).

واستدل الواحدي على أَنَّ الضمير يعود على قريش بمكان نزول السورة، وأنها مكية، ولكن إن صح نزولها في المدينة فالضمير عائد على اليهود، يقول: الذين كادوا يستفزون رسول الله هم (أهل مكة... وهو الوجه؛ لأنَّ السورة مكية؛ فإنَّ صح القول الثاني كانت الآية مدنية) ^(٣).

ومال الثعلبي ^(٤)، والقرطبي ^(٥)، والبغوي ^(٦) إلى ثاني القولين، ودليلهم السياق اللغوي للسورة، ومكان نزولها؛ فما قبل هذه الآية خبر عن أهل مكة، وأنه لم يجر لليهود ذكر، وأنَّ السورة التي منها هذه الآية مكية ^(٧).

(١) معاني القرآن، الفراء، ٢ / ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) جامع البيان، ١٧ / ٥١١.

(٣) التفسير البسيط، ١٣ / ٤٢١ - ٤٢٢.

(٤) ينظر: الكشف والبيان، ١٦ / ٤١١.

(٥) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، ٣ / ١٤٧.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ١٧٨.

(٧) ينظر: الكشف والبيان، ١٦ / ٤١١، ومعالم التنزيل، ٣ / ١٤٧، والجامع لأحكام القرآن، ١٠ / ٣٠١.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٧].

اختلف في عود الضمير المنصوب في (يعلمه)، قال الطبري إنه يعود على الرسول ﷺ؛ ذلك أن بني إسرائيل كانوا يعرفون الرسول محمد ﷺ؛ لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم^(١)، وإليه ذهب الزجاج^(٢).

وقال النسفي^(٣)، والطبي^(٤) أن الضمير يعود على القرآن لوجود ذكره في التوراة، ولأنه قال: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سورة القصص: ٥٣]، وقاله ابن عاشور^(٥)؛ لأن علماء بني إسرائيل يعلمون الذي في القرآن مما يختص بعلمهم، وجوز عوده على الحكم المذكور في قوله: (وإنه لفي زبر الأولين) [سورة الشعراء: ١٩٦].

ويؤيد عود الضمير على الرسول ﷺ أن الآية مكية، ذكر ذلك صاحب تفسير مبهمات القرآن^(٦)، وتبعه الألوسي^(٧)؛ لأن علماء بني إسرائيل ذكروا لقريش أن في التوراة صفة النبي الأمي، وأن هذا زمانه، فهذه الإشارة إلى ذلك، وذلك أن قريشاً بعثت إلى الأحبار يسألونهم عن أمر النبي ﷺ^(٨).

مما سبق يتضح أن لمكان النزول وزمانه أثرا في عود الضمير، فلقد استعان المفسرون بذلك لتحديد عود الضمير في مسائل بعينها، وكانت قرينة مكان النزول، وزمانه دليلا يضاف إلى الأدلة الأخرى في تقوية رأي وتضعيف آخر.

(١) ينظر: جامع البيان، ١٩ / ٣٩٨.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، ٤ / ١٠١.

(٣) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٢ / ٥٨٢.

(٤) ينظر: فتوح الغيب، ١١ / ٤١٩.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، ١٩ / ١٩٢.

(٦) ينظر: تفسير مبهمات القرآن، ٢ / ٣٨١.

(٧) ينظر: روح المعاني، ١٠ / ١٢٤.

(٨) الجواهر الحسان، ٤ / ٢٣٦.

- أثره في بيان سبب ذكر الضمير للمخاطب مرة وللغائب أخرى في آيتين متناظرتين:

ومن الاختلاف في ذكر الضمير في آيتين متناظرتين، ثم إرجاع سبب ذلك إلى مكان النزول وزمانه ما نلّفه في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٥٧]، ثم قال: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة البقرة: ٥٧]، إذ جاء الاستعمال القرآني في سورة البقرة بضمير الخطاب: (ظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى)، على حين أنه استعمل ضمير الغائب في سورة الأعراف المكية، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمْ لَغَمًا وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ لَنْ وَلَسْلَوَى﴾ [سورة الأعراف: ١٦٠]، حيث قال: (عليهم) في الموضعين.

قال ابن كثير وحده^(١): (وَهَذِهِ الْقِصَّةُ شَبِيهَةٌ بِالْقِصَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَلَكِنَّ تِلْكَ مَكِّيَّةٌ، فَلِذَلِكَ كَانَ الْإِخْبَارُ عَنْهُمْ بِضَمِيرِ الْغَائِبِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْصُصُ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ عَمَّا فَعَلَ بِهِمْ. وَأَمَّا فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَهِيَ الْبَقَرَةُ فَهِيَ مَدَنِيَّةٌ؛ فَلِهَذَا كَانَ الْخِطَابُ فِيهَا مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِمْ)^(٢).

فكان الحديث في الأعراف المكية عن قوم موسى، ففيها يقص الله تعالى ذلك على رسوله ﷺ؛ والمناسب لهذا الغرض ضمير الغائب، أما في سورة البقرة فالخطاب متوجه لقوم موسى مباشرة؛ ذلك أن قصتهم تروى في هذه السورة حكاية لحالهم، فجاء الخطاب استناداً إلى ذلك بضمير الخطاب؛ ﴿وَأَخْبَرَ هُنَاكَ بِقَوْلِهِ: فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وَهُوَ أَوَّلُ الْإِنْفِجَارِ، وَأَخْبَرَ هَاهُنَا بِمَا آلَ إِلَيْهِ الْحَالُ آخِرًا وَهُوَ الْإِنْفِجَارُ، فناسب ذكر الانفجار هاهنا وَذَلِكَ هُنَاكَ^(٣).

(١) فلم أجد أحداً من المفسرين أشار إلى ذلك سواء.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١ / ١٧٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ١ / ١٧٨ - ١٧٩.



أثر المكي والمدني في توجيه النحوي البصائر

ذلك ظاهر ما ذهب إليه ابن كثير، ولا بن عاشور رأي آخر، فقد ذهب إلى أن ما في سورة الأعراف نظير ما في سورة البقرة، سوى اختلاف في الضمائر، فإنه جيء بضميري الغيبة في الأعراف، وبضميري الخطاب في البقرة؛ لأن ما في سورة البقرة قُصِدَ به التوبيخ^(١). ومهما يكن من أمر فإن ابن كثير استعان بمكان النزول وزمانه في توجيه النص نحويًا، وفي ذلك توظيف للعنصر الخارجي، أو السياق الحالي، رافقه فهم آخر يضاف لما ذكر من معنى يحتمله النص.

- أثره في تعيين المشار إليه بالاسم الموصول:

يُعدُّ الاسم الموصول واحداً من المعارف في العربية، ويكون مفتقراً أبداً إلى صلته، وينبغي أن تكون الجملة التي تقع صلة معلومة عند المخاطب؛ لأن الغرض بها تعريفُ المذكور بما يعلمه المخاطب من حاله... فلذلك لا تقول: "جاءني الذي قام"، إلا لمن عرف قيامه، وجهل مجيئه^(٢).

هذا الأصل في استعمال الاسم الموصول مع صلته، غير أنه قد تردد قول المفسرين في (الذين أتوا العلم) من قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سورة سبأ: ٦] على قولين كان لمكان النزول وزمانه أثر في ذلك.

اختلف المفسرون في المشار إليهم بالاسم الموصول (الذين)، على قولين^(٣): الأول: أنهم مسلمو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ونظرائه، الثاني: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ، ثم كان لمكان نزول الآية وزمانه أثر في ذلك.

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ٩ / ١٤٤.

(٢) شرح المفصل، ابن يعيش، ٢ / ٣٩٣.

(٣) ينظر: جامع البيان، ٢٠ / ٣٥٣٢، وتأويلات أهل السنة، ٨ / ٤٢٧، والكشف والبيان، ٢٢ / ١٤٤، و تفسير مبهمات القرآن، ٢ / ٣٨١.

ذهب المفسرون إلى أن سورة سبأ التي منها هذه الآية مكية^(١)، إلا أنهم اختلفوا في الآية محل البحث؛ فذهبت فرقة إلى أنها مكية، وعليه فإن الذين أوتوا العلم هم المؤمنون بالنبي ﷺ، وقالت فرقة إنها مدنية، والمراد بهم حينئذ من أسلم من أهل الكتاب^(٢)؛ ذكر ذلك كل من ابن عطية، والقرطبي^(٣)، وآخرون^(٤)، يقول ابن عطية: هذه السورة مكية واختلف في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سورة سبأ: ٦]، فقالت فرقة هي مكية، والمراد المؤمنون بالنبي ﷺ، وقالت فرقة هي مدنية والمراد من أسلم بالمدينة من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأشباهه^(٥).

والراجح عنده أن الذين أوتوا العلم هم أصحاب رسول الله ﷺ، وهو المعزى إلى ابن عباس، أو أمة محمد ﷺ، وهذا معزى إلى قتادة، لأن أمة محمد ﷺ أوتوا بالقرآن علماً كثيراً، ولا مانع عنده من أن يكون المراد علماء أهل الكتاب - وإن كانت الآية مكية - فالمتقصد حينئذ الاحتجاج بما استقر في نفوسهم، والذي أنبأ عنه إسلام طائفة منهم^(٦)، وليس يخلو هذا التوجيه من تكلف.

فالاختلاف في تحديد المشار إليهم بالاسم الموصول (الذين)، ثم عود الضمير المرفوع المذكور في صلته، راجع إلى الاختلاف في مكان نزول الآية، فإن كانت الآية نازلة في مكة، وهو ما عليه سائر آيات السورة؛ فإن المراد بالذين أوتوا العلم أصحاب رسول الله ﷺ، وإن كانت نازلة في المدينة؛ فالمراد أهل الكتاب، وإن اختلف سياقها عن سياق الآيات السابقة واللاحقة، فهذه الآية هي الوحيدة المختلف في مكان نزولها.

(١) ينظر: بحر العلوم، ٧٨ / ٣، والكشف والبيان، ٧ / ٢٢، والنكت والعيون، ٤، ٤٣١، ومعالم التنزيل، ٦٧٠ / ٣، ومفاتيح الغيب، ١٩٠ / ٢٥، والجواهر الحسان، ٤ / ٣٦٣، والتحرير والتنوير، ١٣٣ / ٢٢.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز، ٤ / ٤٠٤، والجامع لأحكام القرآن، ١٤ / ٢٥٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤ / ٢٥٨.

(٤) ينظر: البحر المحيط، ٨ / ٥١٧، والتحرير والتنوير، ١٣٣ / ٢٢.

(٥) المحرر الوجيز، ٤ / ٤٠٤.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير، ١٣٣ / ٢٢.

-أثره في بيان ناصب المفعول المطلق:

لم يقتصر أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي على كتب التفسير فحسب، بل تعداه إلى كتب النحو؛ فبعد النظر في كتب النحو ألفت موضعاً في كتاب سيبويه قد استعان فيه بالمكي والمدني في توجيهه لمسألة نحوية.

ففي باب ما ينتصب من المصادر بإضمار الفعل المتروك إظهاره، ذكر أن (سلاماً) في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٣] مصدر منصوب بفعل مضمر متروك إظهاره، كأن تقديره (سلاماً منكم)، والمعنى: (براءة منكم)؛ فليس المعنى على السلام المعروف، ودليل ذلك في الكتاب أن الآية مكية، ولم يؤمر المسلمون وقتها أن يسلموا على المشركين^(١).

وأظن أن توثيق هذه المسألة يقتضي ذكر نص سيبويه، يقول في الباب المذكور، بعد ذكر بعض المصادر التي تنتصب بفعل متروك إظهاره: وزعم أبو الخطاب أن مثله قولك للرجل: سلاماً، تريد تسليماً منك، كما قلت: براءة منك، تريد: لا ألتبس بشيء من أمرك. وزعم أن أبا ربيعة كان يقول: إذا لقيت فلاناً فقل "له سلاماً"، فزعم أنه سأله ففسره له بمعنى براءة منك. وزعم أن هذه الآية: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً" بمنزلة ذلك، لأن الآية فيما زعم مكية، ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين، ولكنه على قولك: "براءة منكم" وتسليماً، لا خير بيننا وبينكم ولا شر. وزعم أن قول الشاعر، وهو أمية بن أبي الصلت^(٢):

سَلَامَكَ رَبَّنَا فِي كُلِّ فَجْرٍ ... بَرِيئاً مَا تَغْنَثُكَ الذُّمُومُ

على قوله: براءتك ربنا من كل سوء. فكل هذا ينتصب انتصاب حمداً وشكراً، إلا أن هذا يتصرف وذاك لا يتصرف^(٣).

(١) ينظر: الكتاب، ١ / ٣٢٥، والمقتضب، ٤ / ٧٩، وشرح كتاب سيبويه، ٢ / ٢١٧.

(٢) البيت في شرح ديوان أمية بن أبي الصلت، ٦٩، وروايته فيه (باختلاف في عجزه): سلامك ربنا في كل فجر بريئاً ما تليق بك الذموم

(٣) الكتاب، ١ / ٣٢٥.

وفي ما ذكره سيبويه أمور:

أولاً: أنَّ المصدر المذكور في النص القرآني (سلاماً) ليس مصدراً للفعل (سَلَّمَ)، الذي يتبادر إلى الذهن عند ذكره، بمعنى التحية، والذي منه قوله تعالى: (قالوا سلاماً قال سلام)، فهذا يتعدى بحرف الجر (على) ^(١).

ثانياً: أنَّ الفعل الذي أخذ منه هذا المصدر متروك إظهاره، فهو مثل (سبحانك)، و(غفرانك لا كفرانك).

ثالثاً: أنَّ معنى (سلاماً): (براءة منك)، وهذا يعني أنَّ ثمة جاراً ومجروراً متعلقاً بالمصدر المذكور، فكأنه قيل: سلاماً منكم، أي: براءة منكم.

رابعاً: الدليل المذكور على أنَّ المصدر في النص القرآني مأخوذ من فعل متروك إظهاره، وأَنَّهُ بمعنى (براءة منكم)، لا بمعنى السلام المعروف هو مكان نزول الآية، وزمانه، وأنها نزلت بمكة، قبل الهجرة، ولم يؤمر المسلمون في حينها أن يسلموا على المشركين، قال السيرافي: معناه: براءة منكم؛ لأنَّ هذه الآية في سورة الفرقان، وهي مكية، والسلام في سورة النساء وهي مدنيّة، ولم يؤمر المسلمون بمكة أن يسلموا على المشركين، وإنَّما هذا على معنى: براءة منكم وتسليماً، لا خير بيننا وبينكم ولا شر ^(٢).

خامساً: أنَّ في عبارة سيبويه التي نقلها عن أبي الخطاب، والتي قال فيها: (لأنَّ الآية فيما زعم مكية، ولم يؤمر أن يُسَلِّموا على المشركين)، توظيفاً للسياق الحالي المتمثل بزمان النزول السابق للهجرة إلى المدينة، وأنَّ المسلمين غير مأمورين بالسلام على المشركين؛ بل الظرف الذي يكتنف الحالة بين المسلمين والمشركين في تلك المرحلة من عمر الرسالة يتطلب البراءة من المشركين.

سادساً: أنَّ المصدر (سلاماً) بالمعنى المذكور لا يستعمل إلاَّ مصدراً منصوباً، وأنَّ فعله غير مستعمل، وهو المراد من قوله: (فكلُّ هذا يَنْتَصِب انتصاب حمداً وشكراً، إلاَّ أنَّ هذا

(١) ينظر: معاني القرآن، الفراء، ١ / ٤٠.

(٢) شرح الكتاب، ٢ / ٢١٧.

أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي **المصباح** .

يَتَصَرَّف وذاك لا يَتَصَرَّف (١)، أي: لا يأتي منه إلا المصدر (٢)، وبالصورة المذكورة، وكذا المصادر الشبيهة.

وكانت الآية محل خلاف بين المفسرين، فقد ذهب الطبري إلى أن (سلاما) في الآية، بمعنى سدادا (٣)، من دون التعرّيج على ناصب المصدر، ومثله ذهب الماتريدي (٤)، أما الماوردي فقد ذكر ثلاثة أقوال، وافق في الأول منها ما ذهب إليه الطبري، وقال في الثاني إن السلام بمعنى التحية، أي: قالوا: وعليكم السلام، والثالث أنه بمعنى المسألة (٥).

وذكر ابن عطية أن الناصب للمصدر (سلاما) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ فعل مضمّر من لفظ المصدر نفسه، تقديره (سلمنا)، أو أن يكون العامل الفعل (قالوا) المذكور في النص؛ وهو الراجح عنده، لأنّ المعنى: (قالوا هذا اللفظ) (٦)، والظاهر أنّه يحمل السلام على معناه الظاهر، وهو التحية أو السلام، وذكر أنّه بمعنى (سدادا) على رأي، والعامل فيه: (قالوا)؛ لأنّه على معنى: قالوا لهم قولاً سديداً (٧).

وفي الجامع لأحكام القرآن أنّ (سلاما) من التسلم لا من التسليم، والعامل فيه أحد أمرين: إما أن يكون منصوباً بالفعل (قالوا)، ويجوز أن يكون مصدراً، يريد منصوب بفعل محذوف من دون تبيان الفعل إلا أنّه قال: وهذا قول سيبويه (٨).

وعرّج الآلوسي على مجمل الآراء السابقة في المسألة وناقشها، منبها على رأي سيبويه في معنى السلام، وأثر المكي والمدني في ذلك، وأنّه، أي: سيبويه منع أن يراد السلام المعروف بأنّ الآية مكية، والسلام في النساء، وهي مدنية، ولم يؤمر المسلمون بمكة أن يسلموا على

(١) الكتاب، ١ / ٣٢٥، وشرح كتاب سيبويه، ٢ / ٢١٧.

(٢) ينظر: أمالي ابن الحاجب، ١ / ١٩٠.

(٣) ينظر: جامع البيان، ١٩ / ٢٩٥.

(٤) ينظر: تأويلات أهل السنة، ٧ / ٢٤٠.

(٥) ينظر: النكت والعيون، ٤ / ١٥٤.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز، ٤ / ٢١٨.

(٧) ينظر: المصدر نفسه، ٤ / ٢١٨.

(٨) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٣ / ٦٩.

المشركين^(١).

يتضح من المسألة أثر مكان النزول وزمانه في بيان معنى المصدر المنصوب (سلاما) أولا، ثم توجيهه نحويا عن طريق تحديد الناصب له ثانيا، ولولا الاستعانة بذلك لما تأتت لسيوييه حمل (سلاما) على معنى البراءة والمباعدة، وأنه منصوب بفعل مضمر لا يجوز إظهاره، والذي سهل عليه ذلك أن المصدر مستعمل عند العرب بهذا المعنى وثمة شاهد عليه، وهو قول الشاعر أمية بن الصلت.

-أثره في تحديد الدلالة الزمنية لاسم الفاعل:

يدل اسم الفاعل على الزمان كما يدل عليه الفعل، فيستعمل بمعنى الماضي، وبمعنى الحال والاستقبال^(٢)، وتبقى القرينة هي المَعْوَلُ عليها في تحديد الدلالة الزمنية لاسم الفاعل، وقد يُستدل بقرينة مكان النزول، وزمانه على الزمن الذي يدل عليه اسم الفاعل. من ذلك ما رجحه الزمخشري من وجه نحوي مستندا إلى المكّي والمدني، فقد ذهب إلى أن الدلالة الزمنية لاسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [سورة البلد: ١- ٢]، مستقبلية، وليست حالية، وأن جملته معترضة بين القسم والمقسم عليه، قال في الآية محل البحث: واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ... يعني حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر^(٣)... فإن قلت: أين نظير قوله وَأَنْتَ حِلٌّ في معنى الاستقبال؟ قلت: قوله عز وجل: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ومثله واسع في كلام العباد، تقول لمن تعدّه الإكرام والحباء: أنت مكرم محبو، وهو في كلام الله أوسع، لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة. وكفأك دليلا قاطعا على أنه للاستقبال، وأن تفسيره بالحال محال: أن السورة بالاتفاق مكية، وأين الهجرة عن وقت

(١) روح المعاني، ١٠ / ٤٤.

(٢) ينظر: شرح ابن الناطم، ٣١٧.

(٣) هذا المعنى واحد من أقوال، أشهرها ثلاثة ذُكرت في (حل)، والثاني: أن معنى حل هذا البلد: مقيم بهذا البلد، حال به نازل فيه، والثالث: أن معنى وأنت حل، أي: قد جعلوك حلالا؛ مستحل الأذى والقتل. ينظر: المحرر الوجيز، ٥ / ٤٨٣، ومفاتيح الغيب، ٣١ / ١٦٤.

نزولها^(١).

ورده أبو حيان بجملة من الأدلة، ونفي الاتفاق على نزولها في مكة، يقول: (وَحَمْلُهُ عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ اعْتِرَاضِيَّةٌ لَا يَتَعَيَّنُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَوَّلًا أَنَّهَا جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَبَيْنَا حُسْنَ مَوْقِعِهَا، وَهِيَ حَالٌ مُقَارِنَةٌ، لَا مُقَدَّرَةٌ وَلَا مُحْكِيَّةٌ فَلَيْسَتْ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْمُسْتَقْبَلِ، وَأَمَّا سُؤَالُهُ وَالْجَوَابُ، فَهَذَا لَا يَسْأَلُهُ مَنْ لَهُ أَدْنَى تَعَلُّقٍ بِالنَّحْوِ، لِأَنَّ الْأَخْبَارَ قَدْ تَكُونُ بِالْمُسْتَقْبَلَاتِ، وَإِنْ اسْمُ الْفَاعِلِ وَمَا يَجْرِي مجْرَاهُ حَالَةٌ إِسْنَادِهِ، أَوْ الْوَصْفِ بِهِ لَا يَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى الْحَالِ، بَلْ يَكُونُ لِلْمَاضِي تَارَةً، وَلِلْحَالِ أُخْرَى، وَلِلْمُسْتَقْبَلِ أُخْرَى وَهَذَا مِنْ مَبَادِي عِلْمِ النَّحْوِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَكَفَاكَ دَلِيلًا قَاطِعًا إلخ، فَلَيْسَ بِشَيْءٍ، لِأَنَّا لَمْ نَحْمِلْ وَأَنْتَ حِلٌّ عَلَى أَنَّهُ حِلٌّ لَكَ مَا تَصْنَعُ فِي مَكَّةَ مِنَ الْأَسْرِ، وَالْقَتْلِ فِي وَقْتِ نَزُولِهَا بِمَكَّةَ فَتَنَافَيَْا، بَلْ حَمَلْنَاهُ عَلَى أَنَّهُ مُقِيمٌ بِهَا خَاصَّةً، وَهُوَ وَقْتُ النُّزُولِ كَانَ مُقِيمًا بِهَا ضَرُورَةً، وَأَيُّضًا فَمَا حَكَاهُ مِنَ الْإِتِّفَاقِ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ بِمَكَّةَ فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، وَقَدْ حَكِيَ الْخِلَافُ فِيهَا عَنْ قَوْلِ ابْنِ عَطِيَّةَ^(٢) ^(٣).

فمن الأمور التي عوّل عليها الزمخشري في توجيهه النحوي، لـ (أنت حل بهذا البلد)، وأنها جملة معترضة، وأن دلالة اسم الفاعل (حل) مستقبلية، مكان نزول الآية وزمانه، وأنها نزلت في مكة، قبل الهجرة، وعليه فإن الدلالة المرادة لاسم الفاعل مستقبلية، يخبر الله تعالى نبيه بأنه سيدخل مكة، ويكون مبسوط اليد فيها.

وكان لأبي حيان رأي آخر، مكان النزول حاضر فيه؛ فالدلالة الزمنية لاسم الفاعل (حل) على وفق رأيه الحالية، ومعناه (مقيم)، وجملته جملة حالية، ولم يتفق عنده على أن الآية مكية، وهذا الخلاف في مكان نزولها يُضعف ما ذهب إليه الزمخشري من توجيه نحوي.

(١) الكشف، ٤ / ٧٥٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز، ٥ / ٤٨٣.

(٣) البحر المحيط، ١٠ / ٤٨٠.

- أثره في تحديد التاء مع الفعل المضارع، للخطاب هي أم للتأنيث؟

يمكن أن تحمل التاء مع الفعل المضارع في سياق لغوي معين الدلالة على الخطاب، والدلالة على التأنيث، ويكون ذلك عندما يكون الفاعل ضميرا مستترا يجوز رجوعه إلى مؤنث أو مذكر، سواء أذكورا كان الفاعل في سياق لغوي سابق، أم مستدلا عليه بالسياق الحالي وإن لم يُذكر بلفظه.

وهو ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [سورة الرعد: ٣١].

اختلف المفسرون في الآية أمكية هي أم مدنية؟ ثم أثر ذلك في التوجيه النحوي للفعل (تحل).

ذكر الطبري أن الآية نزلت بالمدينة في سرايا رسول الله ﷺ، وفاعل الفعل (تحل) يعود على رسول الله ﷺ، والمعنى: تصيبهم بما صنعوا سرية، أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم^(١). فالتاء على هذا للخطاب، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على رسول الله ﷺ.

وذكر في قول آخر أن معنى (أو تحل قريبا من دارهم)، أي: تحل القارعة قريبا من دارهم^(٢)، فالفاعل على هذا ضمير مستتر يعود على الاسم المؤنث المذكور ظاهرا في السياق اللغوي، والتاء للتأنيث.

وإلى ذلك ذهب جمع من المفسرين^(٣)، إلا أنهم لم يذكروا أثرا لمكان نزول الآية وزمانه في التوجيهين، وذكره غير واحد من المفسرين.

قال صاحب التيسير في التفسير: إن القارعة هي العقوبة، أو الهلكة، أو الداهية، وعلى قول من قال هذا السورة مكية، فتأويله: ولا يزال هؤلاء المشركون يصيبهم بكفرهم

(١) ينظر: جامع البيان، ١٣ / ٤٥٧.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ١٦ / ٤٥٩.

(٣) ينظر: النكت والعيون، ٣ / ٣١٣، والتفسير البسيط، ١٢ / ٣٥٦، ومعالم التنزيل، ٤ / ٣١٩، والتحرير والتنوير، ٣ / ٣١٣، والتفسير الكبير، ١٩ / ٤٣، والبحر المحيط، ٦ / ٣٩١.

أثر المكي والمدني في التوجيه النحوي **المتن**

واقترحهم داهية مهلكة من صاعقة، كما أصابت أربد ونحو ذلك، وكما أصابت المشركين بمكة على ما تأتي قصته إن شاء الله تعالى، أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم، تخرج من المدينة وتنزل قريباً من دارهم، فيخافون، حتى يأتي أمر الله بالقتال.

وعلى قول من قال: هي مدنية، فالقارعة: السرية من سرايا رسول الله ﷺ تأتي مكة، أو تحل القارعة قريباً من دارهم حول مكة، والتاء في هذا للتأنيث، وفي الأول للخطاب^(١)، وقال القرطبي مثل هذا^(٢).

فالمعول عليه في تحديد ماهية التاء في الفعل (تحل) عند النسفي والقرطبي، هو مكان نزول الآية وزمانه، فإن كانت الآية مكية، والذي يعني أن نزولها قبل الهجرة فالتاء للتأنيث، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هي)، يعود على القارعة، وإن كانت الآية مدنية، وأن نزولها بعد الهجرة فالتاء للخطاب، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، يعود إلى الرسول ﷺ، فالتوجيه يختلف باختلاف مكان النزول وزمانه.

- أثره في تحديد دلالة أداة الاستفهام (هل):

يخرج الاستفهام كثيراً إلى معان مجازية عدة، والذي يحدد المعنى المجازي الذي يخرج إليه الاستفهام هو السياق^(٣)، لغويا كان أو حالياً، وقد كان للمكي والمدني أثر في تحديد دلالة أداة الاستفهام (هل) في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [سورة طه: ٩].

قال أكثر المفسرين إن (هل)، بمعنى: (قد)، أي: قد أتاك حديث موسى^(٤)، وذهب ابن خالويه إلى أن أداة الاستفهام (هل) إذا جاءت مقترنة بالفعل (أتاك) في القرآن الكريم فإنها بمعنى (قد)، فالأمر عنده ليس مقتصر على آية بعينها، بل يتعداه إلى كل موضع وردت فيه

(١) التيسير في التفسير، ٧١-٧٢.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ٩ / ٣٢١.

(٣) ينظر: حاشية الدسوقي، ٢ / ٣٧٨.

(٤) ينظر: تأويلات أهل السنة، ٧ / ٢٧١، والكشف والبيان، ١٧ / ٥٠٤، والنكت والعيون، ٣ /

٣٩٥، والتفسير البسيط، ١٤ / ٣٦٢، والبحر المحيط، ٧ / ٣١٤، والبرهان في علوم القرآن،

٤ / ٤٣٣.

(هل) بهذا السياق، فإنها حينئذ تكون بمعنى (قد)^(١).

وقال بعضهم إن الاستفهام في الآية معناه النفي، أي: لم يكن أتاك حديث موسى إلى الآن، وها قد أتاك فتنبه له^(٢)

هذان المعنيان في دلالة (هل) المذكوران في أكثر كتب التفسير، قال الرازي: (وَهَلْ أَتَاكَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَوَّلَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَمْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: وَهَلْ أَتَاكَ أَيُّ: لَمْ يَأْتِكَ إِلَى الْآنِ، وَقَدْ أَتَاكَ الْآنَ فَتَنَّبَهُ لَهُ، وَهَذَا قَوْلُ الْكَلْبِيِّ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَتَاهُ ذَلِكَ فِي الزَّمَانِ الْمُتَقَدِّمِ فَكَانَتْهُ قَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَتَاكَ، وَهَذَا قَوْلُ مُقَاتِلٍ وَالضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ)^(٣).

ورد أبو حيان كون (هل) بمعنى (قد)، وحجته أن السورة مكية، وأنه لم يكن الله قد أطلع النبي على قصة موسى قبل هذا، وعليه فإن الاستفهام استفهام تقرير، يحث على الإصغاء لما يلقى إليه، وهذا نصه: (قَالَ تَعَالَى: وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، هَذَا اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ يَحْتُ عَلَى الْإِصْغَاءِ لِمَا يُلْقَى إِلَيْهِ، وَعَلَى التَّأْسِّي ، وَقِيلَ: (هَلْ) بِمَعْنَى (قَدْ)، أَيُّ: قَدْ أَتَاكَ، وَالظَّاهِرُ خِلَافُ هَذَا لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةً ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَطْلَعَهُ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى قَبْلَ هَذَا ، وَقِيلَ: إِنَّهُ اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ النَّفْيُ، أَيُّ: مَا أَخْبَرْنَاكَ قَبْلَ هَذِهِ السُّورَةِ بِقِصَّةِ مُوسَى، وَنَحْنُ الْآنَ قَاصُّونَ قِصَّتَهُ لِتَسْلَى وَتَتَأَسَّى)^(٤).

فعلى الرغم من أن العربيين يكادون يتفقون على دلالة الاستفهام في النص المذكور، وأن (هل) بمعنى (قد)، أو بمعنى (لم)، إلا أن أبا حيان كان له رأي آخر مختلف، دليله عليه مكان النزول وزمانه.

(١) إعراب ثلاثين سورة، ٦٤.

(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة، ٧ / ٢٧٠، والكشف والبيان، ١٧ / ٥٠٤، ومفاتيح الغيب، ١٦ / ٢٢.

(٣) مفاتيح الغيب، ١٦ / ٢٢.

(٤) ينظر: البحر المحيط، ٧ / ٣١٤.

الخاتمة:

لم يجد المفسرون بدا من الاستعانة بالعنصر الخارجي لكي يصلوا إلى المعنى الكامن خلف النص القرآني، ثم كان المكي والمدني واحدا من أهم تلك العناصر التي استعان بها المفسرون في بحثهم عن المعنى؛ تأتي أهمية معرفة المكي والمدني من أنه يمثل حالة الخطاب في مرحلتين مختلفتين؛ الأولى ممتدة من بداية الدعوة إلى الهجرة، والثانية من الهجرة إلى انقطاع الوحي، واختلاف كل مرحلة عن الأخرى لاختلاف الظروف والملابسات.

لقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج يمكن إيجازها بالآتي:

١- على الرغم من أن المكي والمدني نسبة إلى مكة والمدينة، إلا أن المشهور في دلالتها زمني وليس مكاني، فالمكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، ووفقا لهذا المعنى تعامل المفسرون مع النصوص القرآنية.

٢- أثر المكي والمدني في توجيه بعض النصوص نحويا، ويكون ذلك على وجه التحديد في ما للزمن أثر فيه، فيؤدي المكي والمدني دورا في ترجيح رأي نحوي، وتضعيف آخر، أو ذكر وجه يضاف إلى الأوجه النحوية المحتملة.

٣- لم تقتصر الاستعانة بالمكي والمدني على كتب التفسير فحسب، بل تعداه إلى كتب النحو، ففي كتاب سيبويه مسألة نحوية اعتمد في توجيهها على المكي والمدني.

٤- قد يختلف في الآية الواحدة، أمكية هي أم مدنية؟ فمنهم من يقول أنها مكية، ويقول آخرون أنها مدنية، ويرافق القول بمكيته توجيه نحوي يختلف عن التوجيه الذي يرافقه القول بمدنيته.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ١- الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ١٩٧٤م.
- ٢- ارتشاف الضرب، أبو حيّان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تح: د. رجب عثمان محمّد، مراجعة: د. رمضان عبد التّواب، الناشر: مكتبة الخانجي، مط المدني، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م.
- ٣- أسرار التكرار في القرآن، المسمى: البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، أبو القاسم الكرمانى (المتوفى نحو ٥٠٥هـ)، تح: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التّواب عوض، دار الفضيلة، د. ط، د. ت.
- ٤- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤١م، د. ط.
- ٥- أمالي ابن الحاجب، أبو عمر جمال الدين ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)، تح: فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار- الأردن، دار الجليل- بيروت، د. ط، ١٩٨٩م.
- ٦- الانتصار للقرآن، أبو بكر الباقلاني المالكي (ت ٤٠٣هـ)، تح: د. محمد عصام القضاة، دار الفتح - عمّان، دار ابن حزم - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- ٧- بحر العلوم، أبو الليث السمرقندي (ت ٣٧٣هـ)، د. ط، د. ت.
- ٨- البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، د. ط، ١٤٢٠هـ.
- ٩- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس الفاسي الصوفي (ت ١٢٢٤هـ)، تح: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي- القاهرة، د. ط، ١٤٢٩هـ.

- ١٠- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٥٧م.
- ١١- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، تح: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، د. ط، د. ت.
- ١٢- تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣هـ)، تح: الدكتور مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٥م.
- ١٣- التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- ١٤- التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم ابن جزي الكلبي (ت ٧٤١هـ)، تح: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن الأرقم، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ.
- ١٥- التفسير البسيط، أبو الحسن الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، مجموعة من الباحثين، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٤٣٠هـ.
- ١٦- تفسير البغوي، المسمى (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، أبو محمد البغوي (٥١٠هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- ١٧- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٩م.
- ١٨- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.
- ١٩- تفسير مبهمات القرآن، الموسوم بصلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الإعلام والتكميل، أبو عبد الله البلنسي (ت ٧٨٢هـ)، تح: حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩١م.

٢٠- التيسير في التفسير، نجم الدين النسفي (ت ٥٣٧هـ)، تح: ماهر أديب حبوش، وآخرون، دار الباب للدراسات وتحقيق التراث، تركيا- أسطنبول، ط ١، ٢٠١٩م.

٢١- جامع البيان في تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٠م.

٢٢- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تح: أحمد البردوني، وإبراهيم طيفش، دار الكتب المصرية- القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤م.

٢٣- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، تح: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث- بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.

٢٤- حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ)، تح: عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، بيروت، د. ت. د. ط.

٢٥- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي، دار صادر، بيروت، د. ط. د. ت.

٢٦- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٣هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٤، د. ت.

٢٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.

٢٨- شرح ابن الناظم، ابن مالك (ت ٦٨٦هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٠م.

٢٩- شرح التسهيل، جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبائي الأندلسي، تح: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة، ط ١، ١٩٩٠م.

- ٣٠- شرح ديوان أمية بن أبي الصلت، قدّم له وعلّق حواشيه: سيف الدين الكاتب، وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، د. ط، د. ت.
- ٣١- شرح المفصل، موفّق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، قدم له: الدكتور أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠١م.
- ٣٢- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٨هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٩٨٧م.
- ٣٣- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي (٧٤٣هـ)، تح: الدكتور جميل بني عطا، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط ١، ٢٠١٣م.
- ٣٤- الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ)، تح وشرح: عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨م.
- ٣٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمّد الزمخشري، وهو مذيّل بحاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف)، لابن المنير الاسكندري (ت ٦٨٣هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٤٠٧هـ.
- ٣٦- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، تح: عدد من الباحثين، دار التفسير، جدة، المملكة العربية السعودية، ط ١، ٢٠١٥م.
- ٣٧- اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي (ت ٧٧٥هـ)، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٨م.
- ٣٨- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، ١٩٩٤م، د. ط.
- ٣٩- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط ٢٤، ٢٠٠٠م.

- ٤٠ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١٤٢٢هـ، ١.
- ٤١ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات النسفي (ت ٧١٠هـ)، تح: يوسف علي بدوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م.
- ٤٢ - معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تح: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية، مصر، ط ١، د.ت.
- ٤٣ - معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت ٣١١هـ)، تح: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٨م.
- ٤٤ - معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٨م.
- ٤٥ - مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تح: د. مازن المبارك، دار الفكر - دمشق، ١٩٨٥م، ط ٦.
- ٤٦ - المقتضب، أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب - بيروت، د. ط، د. ت.
- ٤٧ - النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، تح: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د. ط، د. ت.

إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ